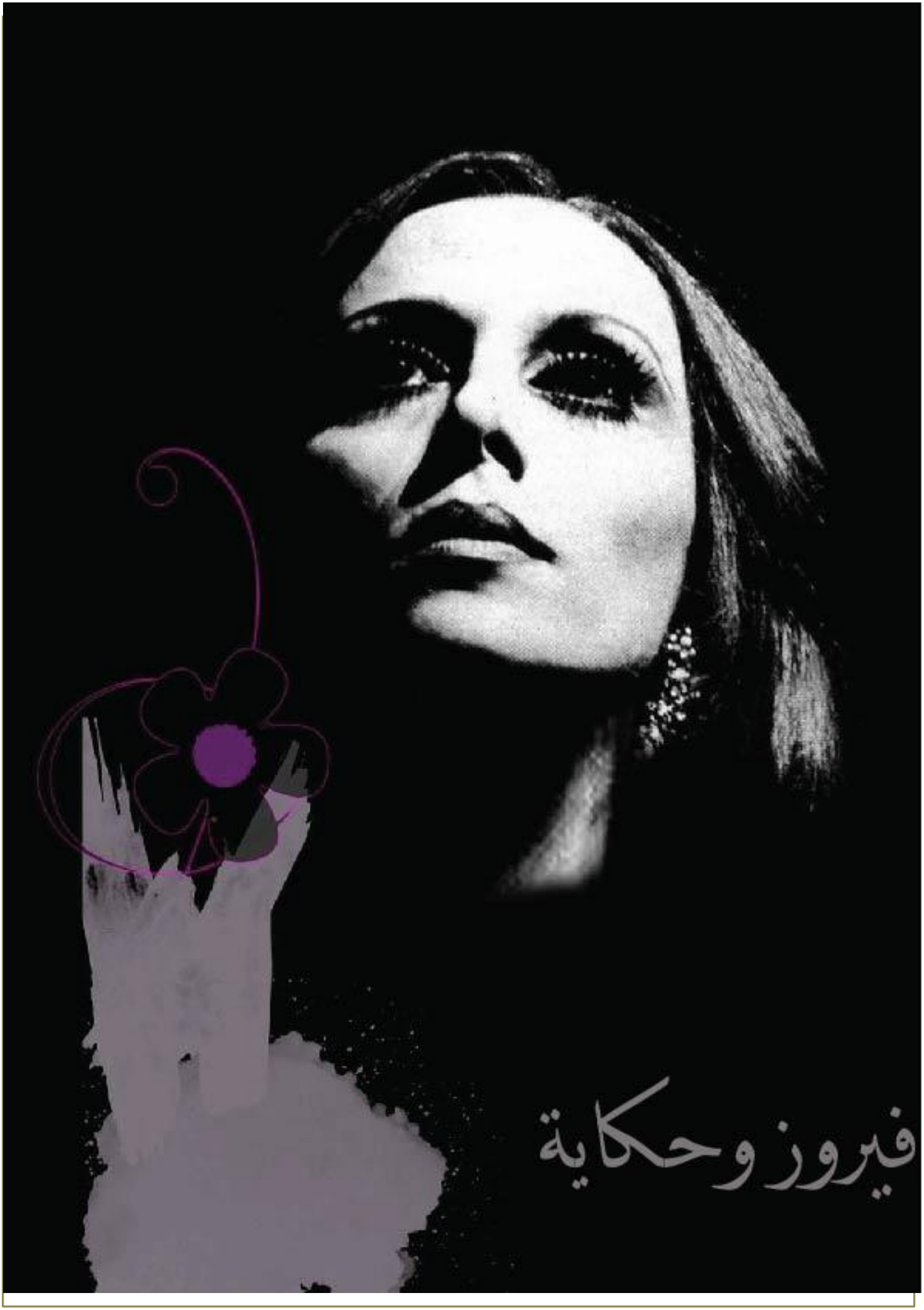
فيروز وحكاية

فيروز وحكاية

الإهداء

إلى من يطيب برفقتها ظُلمة ليلي وإشراقة صباحي.. وإلى من كانت تراتيلها رفيقة دربي وعوناً لي في عوالم الكلمات..

على سبيل التقديم:

عزيزي المقبل على القراءة إليك بعض النصائح..

قم بتحضير الكثير من القهوة وردد اللحن الفيروزي الأقرب إلى قلبك ثمَّ اقرأ واختر الحكاية التي أفلحت في تملِّك ما بداخلك من مشاعر واقتبس منها لحناً..

"معقول في أكتر.. أنا ما عندي أكتر

كل الجمل يعني عم تنتهي فيك"

كلّ الجمل وكلّ الحكايات والأحلام، أنتِ بدايتها ووسطها ونهايتها وما بينهم..

ملاكي أنتِ ومحور كلّ حكايةٍ وكلّ كلمة.

أعثر عليكِ في ترانيم فيروز وقصائد نزار وغزل الشرقاوي..

وعلى طاولة ذاك المقهى الذي ازداد حُسناً فوق حُسنه عندما وطئته أقدامكِ، وفاح فيه عبيركِ ورائحة الياسمين من أنفاسكِ..

بين أوراقي المبعثرة وفي أعين من أقابلهم..

دائماً ما كنتِ، وستكونين

إلهامي الذي لا ينقطع ولا يغادرني،

والطيف الذي يلازمني.. في كل خطواتي وجلساتي ومخيلتي. وعشقٌ فاض بقلبي وجوارحي..

هكذا أحبكِ.. وهكذا أحيا بكِ..

معقول في أكتر؟

****

" و عزة نفسي ك إنسان.. اشتقتلك "

دعيني أُخبرِك سراً:

في بدايةِ كل صباح، أطرد النوم بعد ساعتين من اللجوء له وأتفقّد هاتفي، وأنظر إلى ساعتي.. لم أحادثكِ منذ ثلاثة أشهرٍ وخمسةِ أيامٍ وثلاث ساعاتٍ وإحدى عشر دقيقة..

رغم كبريائي وعزة نفسي، أُحصي دقائقَ وساعات وأيام غيابكِ..

رغم محاولاتي التسعين في البدء من جديد.. ورغم ذوبان قلبي حنيناً.. وبرودة الهواء الذي لا يحمل أنفاسكِ..

رغم محاولات أصدقائي البائسة.. ورغم نظرة أمي المشتاقة لضحكة ولدها..

رغم أني أسير في طريقٍ، أظن أنه طريق النسيان، ورغم جلساتي في ذلك المقهى.. وأكواب القهوة وعلب السجائر التي أسرف في اقتنائها..

لكني، اشتقت لكِ..

رُغمَ ..

" قصتنا يلي حلا أنو ننساها كلا اشتقتلك "

***

" بشتقلك لا بقدر شوفك ولا بقدر أحكيك "

عندما رأيتها تمطر، هرعت مسرعاً إلى الشرفة برفقة كوب القهوة.

إنها أولى قطرات السماء في هذا الشتاء.

أتذكرين وعدي لكِ بأني سأبقى أقف تحت هذه القطرات في كل عامٍ ما حييت؟ وترانيمكِ التي سطرّت الوعد ذاته؟

في العام الماضي، كانت أولى تلك القطرات في الثالثة فجراً، أيقظني رنين هاتفي وصوتكِ..

"انهض إنها تمطر"

أما في هذا العام، ها هي الساعة الثالثة.. لكنني قابعٌ هنا مع كوب قهوتي، دون صوتكِ ودون أن توقظيني.. ولن يكون بإمكاني إيقاظكِ أيضاً..

وعندما تمطر في العام القادم، لن توقظيني.. لكني أدعو الله أن أستطيع فعل ذلك..

لا أعلم إن كان هذا الوعد خالداً في ذاكرتكِ، كما هو في حاضري وسيبقى في مستقبلي..

كما أني لا أعلم إن كنتِ الآن تقفين تحت هذه القطرات..

لكني في هذه اللحظات :

" بندهلك خلف الطرقات وخلف الشبابيك "

***

" لما عالباب يا حبيبي بنتودع "

كان الوداع كغيره من الوداعات، مقيّداً بعبارة

"اعتني بنفسك"

كنتُ أحسبهُ حِرصكِ المعتاد، لكنَّه في هذه المرة، كان الأخير..

كان ذلك أشبه بمعضلةٍ أحاول حلّها رغم إدراكي استحالة هذا..

هذا خارجٌ عن حدود المنطق.. وخارجَ قدرة عقلي وقلبي على التحمّل..

كيف يمكن للوداع أن يولِّد في داخلك القدرة على السير قدماً؟

في دنيا مليئة بالظلام من حولي، كنتِ أنتِ النور..

كيف لي بعد ذهابكِ أن أكون قادراً على الرؤيةِ حتى؟

ذاك الوداع حمّلني ما لا أطيقه ولا أقوى عليه.. رغم قوتي وعزيمتي التي كنتِ تعشقينها..

كان سببها أنتِ، وكان وجودكِ بجانبي ما يبقي قوّتي على قيد الحياة..

لكني في هذه اللحظات، أستهلك طاقةً كنتِ تزوديني بها، تكاد تنفد قبل عودتكِ..

وما أخشاه ..

" بخاف تودعني .. وتفل وما ترجع "

***

" بعيونك حنين .. بسكوتك حنين "

على الطاولة المعتادة وفي المقهى المحبب لنا، جرى ذاك اللقاء غير المعتاد..

كانت عيناكِ تحملان بعض الأسى وصمتكِ لم يكن مألوفاً..

ذاك الهدوء الذي يسبق العاصفة، عصف بقلبي وأرّق رزانتي ولهفتي.

أذكر حينها عندما أخرجتُ من جيبي علبة السجائر وسحبت منها ما كنتِ تقولين عنه سماً.. لكنه في تلك اللحظات كان شيئاً اعتيادياً لا يحتاج لتوبيخكِ المعتاد، كأنه لم يعد يعنيكِ، ناراً تحرق باطني.. ويجعل منا أرواحاً تحوم في المكان، تجرّدنا ببرودها.

تلك الجلسة الصامتة كانت إحدى محطات حياتي المظلمة..

بداية النهاية، على هيئة هالة سوداء من السكون، وحربٌ مشتعلة في داخلي..

وماذا بعد هذا؟

لعلها كانت محاولات بائسة للقبول والاعتياد، وأولى خطواتي نحو السكون الأعظم والحياة المليئة بذلك الهدوء..

لم يكن بوسعي في تلك الجلسة الصامتة سوى تأملكِ..

" تشربين من فنجانكِ وأشرب من عينيكِ "

***

" بعيونك ربيعي نوّر وحلي "

صغيرتي تطفئ اليوم شمعتها الرابعة والعشرين..

وتُشعل في دربنا شمعة جديدة لا تنطفئ..

يكبر جمال عينيها عاماً وتُزهر ورود قلبي ويفوح عبير عشقي،

ويكتمل السحر في ضحكتها ليغُرقني في حُسنها..

وبريق جدائل شعرها يعكس خيوط الشمس في ثناياه، ونسمات الهواء تنثر في رئتيَ عطره..

تكبر عاماً ويزداد في رصيد عمري عاماً آخر.. وأعيش بقربها كلَّ عامٍ بعامين.. عامٌ مألوف يعيشه ذاك الفقير الذي لا يمتلكها ، وعامي الذي في قربها، لتبقى طفلتي وصغيرتي، وأعيشُ عاماً إضافياً أحبها فيه أكثر..

لإنَّ عمراً واحداً لا يسقي عطش روحي لأنهار حبها، تُغزل في عيد ميلادها حكاية جديدة ..

تُنسج الليلة بقية خيوط سعادتي،

سعادتي التي تحوم حولي بقربها وتأسرني بتفاصيلها وتربطني بأيامها وساعاتها ودقائقها ولحظاتها..

تفاصيلها تبعث في قلبي حياةً أعيش لأجلها.. تحيي قوتي وتسند عزيمتي وتمدني بكل أمل الدنيا..

لأقف أمام العالم.. وأخبرهم في هذه الليلة :

" أنا لحبيبي وحبيبي إلي "

***

فيروز

"بيقولوا بكتب الهوى اللي بيحب ما بينسى"

في ليالي الشوق الباردة، وفي الساعة الثالثة فجراً، فَرغت من تأمل السقف وجلسة استحضار الذكريات اليومية لأنهض مسرعاً وأقف أمام المرآة أحادث نفسي..

كيف جرى ذلك؟ وهل كانت لحظات الفراق واقعاً أم كابوساً؟!

أنظرُ في عينيَ وأشاهد وعوداً وردية وأحلاماً صنعناها تطوف في فضاء غرفتي ..

"لن أتخلى عنكِ وسأكمل عمري بقربكِ" والكثير من وعودنا المشتركة التي قطعناها في الخامس والعشرين من آيار في ذاك العام، وفي كل عام كنا نحتفل بترتيلها..

مرّ على الوعد وذكراه ليالٍ طويلة بدونكِ، وما زلت أُدرك بأن كُلَّ منا يُردِدَّ وعده بمفرده..

أوضِّب حقيبتي وأخرج دون وجهة، أسير في الطرقات وأرى حافلة تقترب..

_خذني إلى الكراج _أرجو السائق.

_أثمّةَ خطبٌ ما؟

_سيلٌ من الذكريات جرف جلساتي الهادئة، ووعودٌ أخل بها تكاد تُنسى..

_وهل سيكون قطع الكثير من المسافات لإخبارها بأنَّك تذكرت وعودك ضرباً من الجنون، أم أنه ضربٌ من الوفاء؟

_في حكايات العاشقين لا يموت الحب.. ولا ينسى المحب وعوده..

لكنهم في حكايات العاشقين وكتب الهوى يقولون :

" عالبعد القلب بيقسى "

***

"يا شقيق الروح من جسدي أهوىَ بي منك أم ألمُ"

يا نسيم الروح من بلدي..ما بالُ قصص الهوى؟

بعض انعطافاتها مشرقٌ وبعضها الآخر معتمٌ..

سعادةٌ ممزوجة بالأمل واليأس، وأرواحٌ تتخبط، نصفها يريد الغرق ونصفٌ يريد الطواف.

وأحاسيسٌ مشتتة بين العقل والقلب، عقلٌ يريد الخروج بأقلِّ الأضرار وقلبٌ يريد التضحية بما تبقى ..

أنكمل المسير قدماً أم ندع أيادينا تصارع قسوة البرد في كل شتاء؟

ونبقى نزعم أننا غير آبهين وفي داخلنا تشتعل حبال الود التي تربطنا بشواطئ السعادة؟

كثيرٌ من الحيرة تُقطّع أوصال اللذة والسرور وتُغشي بصيرة الحب،

حيرةٌ تدعنا على حافة الحياة وتُطيّب موت مشاعرنا وأشواقٌ تداعب حزننا تجعلنا نصارع في سجون البقاء ..

" يا نسيم الروح من بلدي خبر الأحباب كيف همُ"

***

"قد وهبته عمري، ضاع عنده العمر"

مع إشراقات ذلك الصباح الشتوي البارد خرجت إلى المقهى المجاور لأحتسي فنجان قهوتي.. وأبعثر أوراقي وأكتب بضع سطورٍ أصبحت أراكِ فيها، وأستذكر تفاصيل الحكاية..

يقترب مني النادل وفي عينيه خليطٌ من الحزن والتعب.. بعضه إشفاقٌ على كدمات روحي وقلة كلماتي وضحكاتي، وبعضه يعكس قصة عشقٍ بائسة أرَّقت أوصاله أيضاً، فقد جمع بيننا، قلوبنا المملوءة بالأسى..

يحمل بين يديه فنجان قهوتي المعتاد .. يقف قليلاً بجانبي كي لا يقطع عليّ شرودي، وقفة الأم العاجزة عن التخفيف عن ولدها، ويحادثني بعد تردد..

_ألم تنتهي من كتاباتها؟

فأجيبه بشفتين مرتجفتين:

_وهل تكفيها حروف الأبجدية؟

لا يجد ما يضيفه فيطأطئ رأسه مهزوماً حزيناً..

وبعد أولى الرشفات وعلى إيقاعات معشوقتي " فيروز " أسطّر تتمة الحكاية..

حُبنا ..

"صُوِّحت أزاهره قبل يُعقدُ الثمر"

"كتبت إليكِ من عتبِ، رسالةَ عاشقٍ تعب"

بنيت لكِ بين أضلعي وفوق طاولتي وفي كلماتي وقصائدي وحروفي قصوراً شيّدتها بأقلامي وزينتها بنفحاتِ حبي.. وأسكنتكِ في مقلتي و رحتُ أنثر سحر وجودكِ في كل مكان..

كتبتكِ ولحنتكِ وغنيتكِ وفي كل سطوري كنتُ أرويكِ..

لكني أشهد في رسالتي هذه أني في أولى محاولاتي لرسم كُحل عينيكِ في مفكرتي.. راحت نصوصي تَسوح وتستغيث وتهرب خجلاً وعجزاً.. وربما أضحت تستنجد بحبات المطرِ ونور القمر ونسماتِ أيلول..

وفرطُ الشوق للوحاتِ تغزلها ضحكاتكِ جرّد ألوان ريشتي..

وفي جلساتي الشعرية بعد منتصف الليل استعنت ببعض النجوم وجعلت منها كتباً، علَّها تُنصِف حكاية عشقٍ سطرتها عيناكِ..

عيناكِ التي جعلتني:

" أعطي هذا الليل أسمائي وهاجر بي "

***

"يا من يحن إليكِ فؤادي.. هل تذكرين عهود الوداد"

غارقٌ في بحر عطرك الذي حملته نسائم الحنين والاشتياق وأتعلّق بقشة اللقاء المنتظر.. أصبِّر نفسي ببعض الأنغام التي تشدوها "فيروز" (موعدنا بكرا وشو تأخر بكرا) وأسطّر في أوراقي:

"إنَّ غداً لناظره قريب"

أحاربُ عقارب ساعتي التي تَعدُّ زماناً لستِ فيه، وأبحر في بقية تفاصيلكِ مواسياً عزلتي فأغرق فيكِ أكثر، وأشتاق أكثر.. ثم أحاول الطواف فأستذكر عينيكِ وأعود أسير بحورك الكثيرة..

أنظر من نافذتي فأرى ظلاماً حالكاً اعتاد صوتك أن ينيره، كما كان ينيرُ دروبي.

أمسك بهاتفي وأصُفَّ بعض سطور الغزل في رسالة نصية وحين أخبِرِ هاتفي بأن المُستقبِل أنتِ.. تتبعثر حروف الرسالة.. فأعود وأسطر:

"هل تذكرين ليالي هوانا..يوم التقينا وطاب لقانا"

***

"نبقى سوا ويبقى الهوى بقلوبنا صافي وحلو"

نفحات من السرور غزت قلبي وجمّلت أروقة روحي وقلبت صحراء باطني جنة..

بعضٌ من سحركِ كالكثير من بحور السعادة، وقطراتٌ من عطرك تعزف في نهر رئتيَ لحناً خالداً..

في قربك تُضاء قناديل عتمتي وتتناثر ضحكاتي وأغمض عينيَ عمّن سواكِ.

أما بعد يا جميلة العينين، وفي حكايتي هذه التي أرويكِ فيها وأمارس فيها طقوس حبي في كل يوم، كنت قد طردت عني نومي، وفي ساعات الصباح الأولى، رحت أرسم بقلمي بعض أشواقي وغزلي وأجدد عهود حبي .. ثم ذهبت نحو هاتفي تأمّلت بعضاً من جمال عينيكِ لتمدني ببعض جرعات الأمل إلى حين اللقاء الذي يسلب مني الصبر ويزداد حنيني كلما نظرت إلى ساعتي ..

يقاطع شرودي شوقكِ الذي أيقظكِ فينجدني سماع صوت فيروز في اتصالك الغزلي..

"يسعد صباحك يا حلو.. وعدك لنا لا تبدلو"

***

"طلّيت ما لقيت غير الورد عند الباب"

جالسٌ وراء طاولتي أنثر ورود حكايتنا وأحيك منها قصصاً ونصوصاً ..

رجفات يداي لم تمنع غرقي في تفاصيل تلك الحكاية، وأكواب القهوة وسجائري زادت الطين بِلة..

تتطاير الأوراق وتذهب بعيداً ولا أبذل أيَّ جهدٍ في إعادتها..

أنظر حولي فأراكِ في جميع أنحاء غرفتي وعلى طاولتي تتطاير صورك وتعبث بغُرف قلبي.

أغمض عينيَ فتلحقين بي إلى أعماقي، وفي دُخان سيجارتي ترتسم بعض التفاصيل.

في زوايا غرفتي تجلس ضحكاتك، لتطرب مسامعي وتؤجج أشواقي، ونظراتك تدفعني للهروب لأجد عند بابي ورداً تحمل عطرك..

وفي كل ثواني حياتي وفي أرجاء عمري التي تثقلها واحات ذكراكِ يتردد على مسامعي:

"بعدك على بالي"

***

"مين قلك تستسهل تكذب دايماً ع مرا"

_لماذا تنظرين إليّ هكذا؟

_في عينيك شيءٌ مختلف، يحكيان لي بأنك اقترفت ذنباً..

_بماذا يخبرانكِ؟

_ستخبرني أنت، إنما في هذه اللحظات أراكَ تطيل النظر إلى عينيَ، على غير عادتك.. لقد كنت دائماً ما تقول لي بإنهما يشعرانك بالارتباك..

_ربما يكون شوقاً..

مسكينٌ أنا، كيف لي أن أخفي عن فاتنتي وعيناها تبوحان لي بأنهما عرفا سري؟

لغة العيون تلك لا تكذب.

أذكر أنني في أحد اللقاءات أخبرتها بأنَّ عينها تبوحان بشيء تخفيانه عني.. والآن، انقلب السحر على الساحر ..

مُدللتي المولعة مثلي بتفاصيل حكايتنا، تحمل روحي بين يديها، ولربما أضحت تُقلِّب بحبها ثنايا مشاعري، فتستشعر في أنفاسي إرهاق يومي، وترى في عينيَ نكران الألم، كما أنها تعلم ما يجول في عقلي لمجرد أن أكرر الخطأ الإملائي في محادثاتنا لمرتين..

وعندما أستفزّها أو أخفي عنها شيئاً تقول لي جملتها المعتادة

"ضاق خلقي يا صبي"

"بديت القصة تحت الشتي.. بأول شتي حبو بعضن"

في رأسي زحامٌ كبير وأنين الروح أشدُّ غزارةً من هذه الأمطار القاتمة وأشدُّ بؤساً وكآبة من الغيوم المحملة بالكثير من الأسى..

لم يكن هذا الشتاء قاسياً هكذا فيما مضى ولم أكن أُحسُّ بهذه الوحدة، لقد أصبحت كلُّ فصول السنةِ قاسيةً وباردة.

كنتُ فيما مضى أنثر فوق أوراقي كلاماً دافئاً يقيني برد الشتاء، لكنّي ما عدتُ قادراً على كتابة ما يشعل في داخلي بعضاً من الدفء..

لقد أصبحتُ قاسياً ومنطفئاً إلى الحد الذي لا حد له..

أتعلم يا صديقي ..

للحب وقعٌ كبيرٌ علينا .. يجعلنا نقاوم قسوة الحياة ، يجعلنا نصمد ونمضي قدماً.. ويجعلنا نعتاد السعادة تحت سيول المطر ونقاوم الطوفان..

نروي قصصاً دافئة ونرى العالم مزهراً.. وحبال المطر تعزف أنغامها العذبة ونسمات الهواء الباردة تُحيك لنا سترةً سميكة..

كم هو مؤلم يا صديقي أن تُحب وتعتاد على الشتاء دافئاً..

"خلصت القصة بتاني شتي.. تحت الشتي تركوا بعضن"

***

"حبيتك والشوق انقال وليلات الحلوة عالبال"

هذه الحكاية ليست كسابقاتها، فكلُّ سطرٍ من سطور هذه الأغنية له وقعٌ خاصٌ على قلبي..

اسمحوا لي بدايةً أن أعتذر عن حكاية اليوم وأسطّر بعضاً من الكلام الممزوج بمشاعر مختلطة وقليلٌ من جنون عاشقٍ لسرد الحكايا وترانيم فيروز..

"حبيتك وسع الغابات"

وغيرها من الترانيم التي تحمل الكثير من اللذة والحب والألم والشوق ..

في ذلك الركن المعزول الذي كنا نلتجئ إليه، هرباً من عيون البشر الحاسدين والمتشددين لعاداتهم، كنت أستغلُّ عشقكِ لهذه الترانيم فأتلوها على مسامعكِ بصوتي الرنان _كما أحببتِ أن تسميه_ فأحصل عند نهاية كل سطر على ضحكة من عينيكِ وقبلة.. فأُعيدُ السطر ثلاث مرات والأغنية ثلاث مرات فتضجرين وتكتشفين لعبتي ثمَّ أحكي لكِ بعض الحكايا فتهدئين، وأعود أمارس احتيالي ويمضي الوقت اللعين..

كم أحببتك. مضى كل ذلك سريعاً يا عزيزتي.. إنها سنّةُ الحياة اللعينة.. نصف حياة نعيشها على أطلال ما مضى.. ونصفٌ آخر يُقسّم إلى أنصاف، أنصافُ فرح وأنصاف حزن والكثير من المشاعر، كلٌّ في نصفه المحبب..

وبعدك يا هالطير بتجي وبتروح بعيد توعي بقلبي الشوق وتزيدو

يا لمرارة الشوق يا عزيزتي..

في نسمات الهواء وشدو البلابل .. حتى في رشفة القهوة وأضواء السيارات .. في كل ما يحيط بنا، يتربص الشوق ويأخذ منا أجر تلك السعادة التي قضيناها في لحظات كان يقف فيها بعيداً منتظراً أن يحين دوره..

"حبيتك ما بعرف وين بأيّا نبع بأيّا عين"

***

"موعود بعيونك أنا"

في إحدى تأملاتي المعتادة وراء تلك الطاولة، وعلى ذلك الكرسي المعتاد، جلست أمام فنجان قهوتي أحمل بين يديّ قلمي المعتاد أيضاً، محاولاً استحضار ذلك الإلهام اللعين. أسرح بنظراتي قليلاً، أكتب سطراً وأشطب ما سطّرت..

كتبت عن الحنين كثيراً لدرجة أنَّ أوراقي قد ضجرت وأصبحت تتأفف وتمتص حبر قلمي قسراً.

لم أكن مدركاً أني وفي يومٍ من الأيام قد أشعر بالفراغ ولا أجد من الكلمات ما يسندني..

وفي غفلةٍ مني وجدتني أرفع رأسي بالصدفة. دخولٌ مفاجئٌ قلب كياني وبعثر كلماتي ولحق نبضات قلبي الذي أسرع بالخفقان..

يا لروعة ما أرى! _رددت متعجباً.

كان هذا خارج نطاق الجمال وفوق قدرة قواميس الغزل..

شعرت بنظراتي تفضح مدى ذهولي أمام تلك العينين الفائقتي الجمال والوجه الصبوح والقوام الممشوق والشعر المنسدل..

حسناً، لقد كان ذهولي مربكاً.. فعند أول تلاقٍ لنظراتنا أخفيتِ بعضاً من سحر ضحكتكِ وجلستِ تتأملين عينيّ الفاضحتين..

وما زاد الطين بِله.. ذاك المقطع الجميل من إحدى ترانيم فيروز..

" أنتي عيونك سود ومنك عارفة.. شو بيعملوا فيي العيون السود"

"سهار بعد سهار تَ يحرز المشوار"

_قل لي مزيداً من قصائدك أيها العاشق ف ها نحن تحت ضوء القمر، والنسمات العليلة توقد بداخلك إلهامك الجميل..

_عيناكِ يا صغيرتي منطفئتان ذابلتان.. دعكِ من قصائدي وارتمي بين أحضاني ..

_في حضرتكِ يا أميري لا شيء يذبل وأنا مشتاقةٌ جداً .. حارب اللغة لأجلي يا عزيزي وقم بأسر بعض كلمات الغزل.. وأنا سأحارب النوم وأضحّي براحتي، يا كلَّ راحتي.

_اهِ يا مدللتي العنيدة.. حسناً، سأحكي لكِ قصةً قصيرة لكن بشرط..

_لقد قبلت _قاطعتني بلهفة.

_في ليلةٍ من ليالي تشرين الباردة كان هناك أميرٌ صغيرٌ مشتاق.. خرج في جوف الليل قاصداً تلك الصبية المجنونة التي أرَّقت أركان مملكته الصغرى وأسرت قلبه..تلك الصبية الجميلة ذات الشعر الحريري والوجه الأجمل من البدر والضحكة الخلابة..

صال وجال وأيقظ الحراس وخطب بالناس .. " أيها الناس .. أعذروني على سلوكي فهو سلوك عاشق مشتاق.. اجلبوا لي تلك الفاتنة لتملأ فراغ قلبي وتنشر البهجة في جميع أركان مملكتي"

_قل لأميرك بأن النعاس غلب حبيبتي واطلب منه أن يؤجل بحثه عن تلك الفاتنة إلى الغد.. فأنا سأغفو في أحضان أميري _قاطعني صوتها الناعس.

_لقد عثر عليها .. هي الآن غافيةٌ بين أحضانه ومستسلمةٌ للنوم الذي كانت تحاربه..

" يا حلم ملوى الكون بس اسهار"

***

"صباح ومسا شي ما بينتسى"

اسمحوا لي أعزائي أن أنثر على هذه الأغنية بعضاً من الحب وأجردها من الحزن المختبئ فيها..

لقد قالت لي صغيرتي بأنها تحب هذه الأغنية وشعرت حينها بأنها تطلب مني أن أكتبها على طريقتي..

اعذريني يا فيروز، فأنا اليوم في عيد ميلادك سأرتكب حماقة عاشق وأرغب آسفاً أن أعبث قليلاً بتراتيلك.. لكنَّ عينيها جميلتان للغاية وأنا أمام عينيها لا حول لي ولا قوة..

دفء صوتها غيّر موازين حياتي وسلب مني حزني وألغى من قواميسي مفرداتي الكئيبة..

شعرها، يا جارة القمر، غاباتٌ من السلام والسعادة استملك قلبي وروحي ..

ويداها دافئتان كأنهما رغيفٌ فارق وهج التنور منذ لحظات..

أما بقيةُ تفاصيلها عصيةٌ على الغزل.. فمعشوقتي خجولةٌ كثيراً وتفاصيلها أكبر من كلمات الغزل..

لم أستطع يا جارة القمر أن أترك الحب وآخذ القسوة فقد أحيَت هذه الجميلة المدللة في داخلي معاني الحب مجدداً وزرعت في كلِّ زاويةٍ من زوايا روحي زهرة حبٍ فواحة .. أذابتني وأعادت صقلي يا جارة القمر..

"رجعلي الحب وأخدت الحنية"

"ياريت فيها تحملك وتروح عبلاد ما تقشع فيها حدا"

كنا نمشي ذات مساء خريفي بارد.. نظرتُ حينها إلى وجهكِ القمري فرأيت وجنتيكِ ملونتين ببعض الحمرة، خفق قلبي صارخاً من شدة الجمال.. لكني لم أكن أعلم بأنّها حمرة الغضب والغيرة لا حُمرة البرد المحيط بنا..

زاد خفقان قلبي قلقاً عندما نظرتِ إليّ تلك النظرة الغاضبة، وأخبرتني بأني قد عبثت بقلبكِ وأشعلتُ في داخلكِ ناراً ربما تكويني.

آهِ يا صغيرتي، كم أنتِ جميلةٌ في جميع تقلبات عاطفتكِ .. في غيرتكِ وخوفكِ وفرحكِ .. كم أعشق حمرة وجنتيكِ وكم أكره حزنكِ ..

سامحيني يا ملاكي الصغير فأنا عاشقٌ طائش.. أو ربما أكون سيئاً قليلاً إذ أشعلت هذه الغيرة .. لكني أقسم لكِ بالذي زرعكِ في قلبي بأنّكِ كل نسائي وجميلة الجميلات في عيني..

ثم أنني يا فاتنتي لم أقدر على اتقاء تلك النار.. فربما كنتُ لحظة إشعالها طفلٌ لا يدري بمَ يعبث..

كانت ليلةً بائسةً يا صغيرتي الجميلة، حتى في حزنها.. لم أذق فيها طعماً للنوم .. فأنا قد عاهدت نفسي مذ رأيتُ عينيكِ أن أصون ضحكتكِ وأن أحافظ عليها.. لكني في لحظات طيشي ارتكبت تلك الحماقة.. وأنا نادمٌ جداً يا صديقتي الطيبة ..

قالوا فيما سلف يا صغيرتي بأن المحب لمن يحب غفور.. وأنَّ العاشق أنانيٌّ بطبعه وأنا لا ألوم أنانيتك حتى لو قلتِ لي في لحظة جنون وغيرة:

"هون خليني عايشة عالحب والألحان"

***

FD

"يا حلو شو بخاف إني ضيعك"

على تلك الطاولة التي اعتدت ذكرها في أغلب حكاياتي جرى ذلك اللقاء الحميمي الممفعم بسحر الحب، كان الجمال طاغياً على جلستنا رغم القليل من الخوف الذي يترقَّب من بعيدٍ متحيّناً الفرصة لإثارة الرعب في نفوسنا..

كان يربكه حضور ضحكاتنا واستيلاؤها على كل أرجاء المقهى الذي كان كعادته يحتفل بنا وينحني جزعاً عندما يرانا نشبك أيدينا ونتبادل النظرات المغوية..

يا لقباحة ذلك الخوف..إنه كالشيطان بخبثه، كثيراً ما أراه يتجول بالقرب مني ويطلق في أصداء روحي سيلاً من الكلام الخبيث الشيطاني لدرجة أني من شدة تأثري أكاد أصدقه وأرضخ له في بعض الأحيان..

يهمس لي بأنَّ الحزن قادم، وبأنَّ الليالي التي أنام فيها ضاحكاً مبتهجاً سأجني ضعفها بؤساً وألماً وأن ما يحدث هو جرعة سعادة مؤقتة لن يمضي الكثير من الوقت حتى أصحو منها..

و ها هو، في ومضة ضعف، وجد ضالته وبدأ يتجول في أرجاء عقلي ماحياً عن وجهي تلك الابتسامة ومبعثراً لحظات السعادة وزارعاً بين ثنايا قلبي بعض الألغام التي كان فتيلها بعض التساؤلات كما أنه يدفعني إلى الشك ويحيك لي المكائد..

"يا حلو شو بخاف إني أسألك أن كنو بعد بتحبني"

"أنا كلما بشوفك كأني بشوفك لأول مرة حبيبي"

بِتّ أشعر بأن حياتي بقربكِ مثل فصل الشتاء، يملأ قلبي بفيض المشاعر ويستهويني للسير في شوارع مدينتي الحزينة.

يعصف بروحي الشوق إليكِ مؤرقاً أوصال روحي، دافعاً إياي للبحث عنكِ في زوايا غرفتي وبين سطور رواياتي وفي ترانيم معشوقتنا..

ثم أنني_يا شتائي الجميل_ بِتّ أنتمي إليكِ، واصلُ بقربكِ إلى ذروة السعادة التي لم يعشها أيّ كائنٍ على هذه الأرض، كما أنني ومن فرط حبي وأشواقي أصبحت ألقاكِ في شتى لحظات حياتي، بين أوراقي التي تلازمني والتي فاض بها لهيب الغيرة وربما الحقد.. فقد أسرني فرط الشوق لكِ وانتشلني منها ومن كلِّ عاداتي وهواياتي وأوقاتي ..

ربما كان باستطاعتكِ يا عزيزتي أن تشعري مثلي بفرح تلك الأوراق الغيورة حين أكتب فيها بأني حزين أو بأننا تخاصمنا..

دعينا يا صغيرتي نعود إلى حيث بدأنا، إلى تلك الأشواق التي _كما أسلفت سابقاً_ تؤرقني وتتعبني رغم لذتها فأنا عندما أشتاقكِ أضخ في دمي مزيداً من الحب لكِ

"عم شوفك بالساعة بتكات الساعة"

***

في حكايةٍ جديدة من حكاياتي رفقة محبوبتي و ترانيم فيروز.. أجد نفسي تائهاً بين سطور هذه الأغنية و حائراً، بأيِّها سأفتتح حكايتي ؟

" بقطفلك بس هالمرة.. شي زهرة حمرة و بس "

أظنها أقرب العبارات و أنسبها للحديث عن ذلك اللقاء،

فعلى الرصيف الذي اعتدت التلذذ بانتظارها فوقه، كنت أحتضنُ داخل يدي وردةً حمراء، أمسك بها كما تمسك الأم بصغيرها.. هذه الوردة المحظوظة التي كنت قد قطفتها من حديقة منزلي لأقدمها لها و أحصل على ثمنها قبلةً لذيذة من ثغرها..

كان الجو ماطراً لكنَّ قطرات المطر كانت أشبه بتلك الوردة التي أحملها، بعطرها وجمالها. وكنت شديد الخشية من أن تعبث الريح بأحد أوراقها وكنت أخشى أن أشد قبضتي عليها فأعبث أنا بها..

كان شوقي أيضاً يعبث بقلبي و يجعلني أتفحّص المارة من تحت مظلّاتهم و أحاولُ قصارى جهدي في أن أطرد رائحة المطر لأكون قادراً على استنشاق عبيرها قبيل الوصول..

كما أنني كنت أخشى على ساعتي التي قدّمتَها لي منذ مدة ، من التبلل.. ربما يكون هذا نوعاً من الوسوسة لكنني كنت حقاً شديد الحرص عليها..

لم يكن بوسعي سوى الإنصات ل صوت قلبي فهو الأقدر على استشعار وصولها.. أحسست بخفقانه يتزايد مما جعل عينيَ تناظران ذلك الركن من الشارع وتحاولان سدَّ جوعهما إليها..

وعند عناق أيدينا رحت أخبرها :

" يا ويل عيوني كيف بتندهلك"

***

" كان الوداع ابتساماتٍ مبللةً بالدمع حيناً وبالتذكار أحيانا"

كانت ليلة الأمس أشبه بسيلِ جرف مني كلَّ كلماتي وقدرتي على البوح وسلب مني مخزون التعبير .. وكنت من شدة وقع ذاك القرار عاجزاً عن الرؤية والتحدث والكتابة، عاجزاً عن الاستنجاد بما كان يخفف وطأة ألمي..

أشرق صباح هذا اليوم وأشرقت معه الندوب على كافة أرجاء جسدي وروحي، حاولت جاهداً النهوض والوصول إلى آخر ما تبقى من القهوة و إدارة المذياع لتتسرب بعض ألحان فيروز إلى داخل قلبي المنهك..

"أمس انتهينا"

ضربةٌ أخرى فرّقت شمل جزأين من روحي و زادت الطين بلة..

أطفأت المذياع واتجهت نحو طاولتي، جلست متأملاً أوراقي الخائفة وأمسكت بقلمي المرتجف ثم بدأت بأولى محاولات النجاة :

"تفاصيل ذلك المشهد أعتى من الكلام"

ذرفت بعض الدموع آملاً أن تكتب حين سقوطها على الأوراق ما ينقذني وحدث بالفعل ما أردت، سقطت بعض الدمعات ولوّنت

"حتى الهدايا وكانت كلَّ ثروتنا "

ضحكةٌ هيستيرية استملكت روحي لتذكرني بأن لا طائل مما أفعل وبأن هذه الروح التي أحملها وأستعين بها لأكتب مزيفة وبأنَّ كل ما في داخلي بقي عالقاً هناك ..

و في غفلة، تسرّب من نافذة غرفتي لحنٌ قضى على أولى المحاولات وجرّدني من القدرة على إعادة المحاولة لحنٌ قالت فيه معذبتي ومعشوقتي :

" يا رحلةً في مدى النسيان موجعةً "

***

"لما بغني أسمك بشوف صوتي غلي"

لن يكون وطني هو المقصود بما سأكتب ولن أقصّ عليكم حكاية تلك البقعة الجغرافية التي أعيش فوقها..

لن أكتب هنا عن الجنوب أو دمشق أو اللاذقية، بل سيكون موطني الذي أريد نثر حروفي للتغزل به، عينيها و ذلك الوادي الواقع بين خديها وشفتيها عند ابتسامتها..

اسمحوا لي الآن بعد أن نوّهت أن أعيد ترتيب القصة، وأن أبدأ الحكاية من جديد. وفي اعتقادي، لا بداية أعظم من الحديث عن جلستي برفقتها، تلك الجلسة التي سببت استلهامي لكلِّ ما أكتبه.

حدث ذلك تحت سقف بيتنا المتخيل، كنت أتأمل عينيها وأدعو الله أن يحفظ سحر ضحكتها داخل قلبي

أذكر حينها بأني _في لقاءي المتخيل معها_ أخبرتها :

كثيرون قالوا بأنَّ أحضان من تحب هي وطنك الثاني، سأعارضهم، وسأجزم بأنَّ مبسمكِ هو الوطن الأول والأخير

فالأرض وجنتيكِ والسكان جوارحي ولا سلطة تعلو فوق سلطة عينيكِ

أخبرتها أيضاً كم أحبها وكم أعشق تفاصيلها ثم جلست أحصي أعداد شعراتها وأكتب بكلِّ شَعرةٍ قصيدة

كنت أحتال على نفسي وأتعمّد النسيان لأعيد العد والتغزل. وكنت أخشى انتهاء تلك الجلسة..كنت أودّ إخبارها أيضاً بأن تلتفت، لأتغذى من سحر عينيها وأنسى حتى أين أنا..

أقتربُت أكثر، مرتاباً راغباً في احتضانها فتلاشى طيفها وعدت إلى أوراقي وكتبت :

"رسائل الغياب مكتوبة بالسهر"

***

" لا أنتَ حبيبي ولا ربينا سوا"

في يومٍ لم أعد أذكر تاريخه لكنني أذكر بمنتهى الدقة تفاصيل تلك الساعة التي أريد التحدث إليكم عنها ..

أذكر بأنَّ ذلك اليوم كان شتوياً بارداً، كنت عائداً إلى منزلي بعد لقاء مأساوي جرّدني من روحي، فتحت الباب حينها وسرت بهدوء كجثة متنقلة ، وصلت إلى طاولتي و هويت على الكرسي الخاص بي، نظرت إلى أوراقي ثم تأملّت الساعة الجاثمة فوق طاولتي وكتبت بضع جملٍ متفرقة منها :

" مضى من الوقت ساعةٌ كاملة.. كانت تلك الساعة هي أقسى ما قضيته في حياتي كلها " وكتبت أيضاً " النهايات يكتبها المتعبون "

ثم استجمعت بعضاً من قواي وأكملت :

" تلك الساعة التي تلت خروج الروح من جسدي بخروج تلك الكلمات وفور تلقي مسامعي لها

لا أنت حبيبي ولا ربينا سوا

لم تكن معشوقتي"فيروز" هي من رتلتها ولم أسمعها في المقهى الذي كنت جالساً فيه.. بل كان فم محبوبتي هو من نطق بها.."

تلك الساعة التي تلت الفراق الذي كان هادئاً رغم الزلزال الذي ضرب قلبي، بارداً رغم الجحيم المشتعل في داخلي.. كان وقعه شديداً كرصاصةِ إعدام ..

وبعد مضي تلك الساعة توقف الزمن عن إكمال مسيره وبقيت عاجزاً عن الشعور بتتالي السنين ومحاولة ترتيب الأحداث .

ها أنا الآن أحاول من جديد جمع ما تبقى مني لِأخبركم بما استطعت تذكره ولأخبركم بأنَّ الشيء الذي لن أنساه هو أني ظللت أردد :

"بخاطرك صليلي ، تسعد يا حبيبي "

***

"قلو عيونو مش فجأة بينتسوا"

ذات مساء وفي أثناء غرقي بين الأوراق وأكواب القهوة والسجائر وبينما كنت أتأمل باحثاً عن الكلمات، رنَّ هاتفي منتشلاً إياي من حالة الصمت المطبق وطقوس الكتابة اللعينة..

نهضت متثاقلاً وكانت رغبتي وأمنياتي في سماع صوتها هما ما دفعني للنهوض ..

ما أشدَّ حزني عندما وجدت بأنها لم تكن هي.. بل كان صديقاً لنا.

قمت باستقبال الاتصال متململاً:

_ألو

_كيف حالك؟

_أظنني بخير.. وهي، كيف حالها؟

_لقد حدثتني لأخبرك بأنها مشتاقة وبأنها تحاول أن تكون بخير..

_أخبرها بأن الحبر الذي طبع حبها على شرايين قلبي لن يجف..

_حسناً أيها الكاتب الحزين، إلى اللقاء

عدة دقائق وأنا ممسكٌ بهاتفي أراقب شاشته.. ثم قررت في لحظة شوقٍ قاتلة أن أكسر حواجز الصمت التي بنيناها بيننا وقمت بالاتصال..

كانت سمّاعة هاتفي ترسل إحدى نغمات معشوقتنا المحببة:

"سلملي عليه.. قلو إني بسلم عليه"

ابتسمت وبعد حين تردد على مسامعي صوتها الناعس، أخبرتها:

"ضحكات عيونو ثابتين ما بينقصوا"

***

"دق قوي الدق وعي كل البشر"

في ليالي الشوق الباردة والطويلة وعندما كنت أحاول أن أكبح جماح شوقي بألحان فيروز وأوراق الكتابة لمعت في ذهني فكرةٌ مجنونة..

كان عقلي يحدثني بالذهاب إليها والوقوف مقابل شرفتها.. وكنت أحاول أن أطرد أفكار الأفلام والمسلسلات تلك.. لكنني في النهاية استسلمت لها.. فنهضت وارتديت ما يقيني برد نسمات الشتاء وخرجت قاصداً بيتها..

كان الهدف بعيداً وكان الوصول إلى بيتها يتطلب ساعةً من الوقت..

وكان الظلام حالكاً فالوقت تجاوز منتصف الليل والقمر في إجازة والناس في غفوةٍ يصعب على مدافع الأرض إيقاظهم منها. كنت السائر الوحيد في الشوارع..

وحينما اقتربت من الوصول تراءى إليّ ضوءٌ ينبعث من غرفتها وصوت ألحانٍ تُعزف..

اقتربت وأخرجت هاتفي ثم قمت بالاتصال بها.. وبعد لحظات أتاني صوتها الدافئ:

_أظنك غير قادر على النوم..

_أظنك ستفاجأين عندما تطلين من النافذة..

أطلّت من النافذة تحمل العود الذي كانت تعزف عليه بين يديها.. نظرت لها بعينيَ المنهكتين وعاودت الاتصال لأخبرها:

"دق قوي الدق وعي كل البشر، الليل مش للنوم أصل النوم للسهر"

***

نیرو

"والأيام شو ضيعنا أيام"

مضى على مشاجرتنا الأخيرة ثلاثة أيام ومايزال الكبرياء، سيد الأحكام.. ما من تنازلات، والروح ك قطعة جليد تقاوم حرارة الأحداث.

_لا بد للعتاب أن يحسم الأمور وأن يعود بقلبينا إلى السكة الصحيحة _كنت أحدث نفسي.

ساعةٌ من الزمن أمضيتها باحثاً عن رسالة اعتذار خفيفة لكي لا أفقد جزءاً من صلابتي.. كنت أحاول الهرب لكنَّ ساعي البريد فاجأني بصوته من وراء الباب وهو يقرعه:

_اشتقت لعطر رسائلكما.

فتحت الباب ونظرت إليه نظرةً يملؤها الذهول ثم أجبته مطأطئ الرأس:

_إنَّ الكبرياء قد باعد بيننا وأظنه قد أوشك على الاحتفال بنصره على الشوق..

ألقى عليّ ابتسامةً حزينة ثم أجاب:

_والأحلام، شو كبرتو أحلام..

_اسمح لي ببضع دقائق وسأعود _قلت له وقد تسلل إلى قلبي بعض البهجة.

ثم دخلت مسرعاً إلى طاولتي ورششت بعض العطر فوق أحد الأوراق وكتبت:

"والأحلام شو كبرنا أحلام... يا سلام على حبك يا سلام"

***

"بيطلع عبالي أرجع أنا وياك"

في قانون الحب، عليك أن تكمل المسير..

قد تظنونه هذراً وقد ترغبون في الدفاع عن أنفسكم الهاربة وقد تختلقون الأعذار.. وربما تظنون بأنَّ ما سأسلفه يحوي بعض المثالية، لكنكم لم تدركوا الحب كما أدركته..

اليوم أحتفل بالذكرى الخامسة للحب الذي تولّد في قلبي..منذ أن جمعتنا الصدفة الأولى..

سيتبادر إلى أذهانكم أنها خمس سنواتٍ من الحب. ويؤسفني أن أخيّب ظنكم وأخبركم بأنها ذكرى تجدد الحب وأنَّ هذه الذكرى تحمل بعض الخصوصية، فمن أحبها وأنا نُسجِّل عودة حبنا إلى الدرب الصحيح ونحتفل به.. أي أننا وبعد كلِّ شجار وكلِّ ركودٍ يعيشه حبنا نعاود الحب من جديد.. فنطوي صفحةً لطخها واقعنا الأليم الذي يأبى أن يجمع شملنا ونبدأ من جديد في طريقنا الذي نرفض بناء جدارٍ ينهيه..

في قانون الحب، عليك إكمال المسير.. أكررها رغم معرفتي بأنَّ بعض التكرار في الأدب يفسد بعضاً من جماليته.. لكنني دائماً ما أرددها على مسامعها لتهديني ابتسامةً من شفتيها ونظرةً توحي لي بأنَّك أفلحت هذه المرة أيضاً..

منذ دقائق قمت بتجديد ذاك الحب وسطّرت هذه الذكرى وجلست أكتب:

"أنت الأساسي وبحبك بالأساس"

***

"كل من حبيبو معو وانا حبيبي راح"

فُقد مني عنواني وملجأي وانتهت الحرب التي كنت أخشى خسارتها.. وها أنا ذا أعود خالي الوفاض منهك الروح رغم استعدادي وتجهزي للخسارة..

لم أشعر يوماً بهذا الشوق للكتابة ولم أكن أدرك مدى وحشة هذا العالم..كما أنني وطوال مسيرتي في الكتابة لم أعتقد يوماً بأنني سأكتب دون هدفٍ أو غاية ..

لم أعتقد يوماً بأنَّ نثر المشاعر فوق الورق يسمى كتابة ولم أشعر يوماً بأنني مشتتٌ كلَّ هذا التشتت..

كان البعد قاسياً رغم محاولاتي العديدة للنجاة.. لكنها كانت أشبه بمحاولات النجاة من انفجار لغمٍ حطت قدمك فوقه، ظللت أحاول الحفاظ على تماسكي وعند اشتداد لحظات اليأس كنت أواسي نفسي بأنَّ الموت هو النهاية..

انفجر اللغم لكنني بقيت حياً، أو شبه حي.. بقيت جسداً تطايرت أشلاؤه في كلِّ مكان..

فجر العاشر من رمضان يُقبل ولم يبقَ لي غير الدعاء علّني أدرك في الحياة الثانية ما عجزت عن تحقيقه هنا..

صوت المؤذن ترافق مع صوتِ ما تبقّى من روحي ف رحت أناجي الله خاشعاً متضرعاً:

"يارب نسمة هوا يجي الحلو فيها"

"يا قلبي لا تتعب قلبك"

بحبك على طول بحبك أو أحبكِ دائماً ففي الحالتين جائز..

عزيزتي التي لا تُقّدر محبتها بثمن... هذه ليست رسالةً من رسائلي إليكِ بل هي بضع كلماتٍ سأتلوها عليكِ..

مذ عرفتك وقواعدي تتراقص وتتمرد فلم أعد أفرِّق بين عاميةِ وفصحى وبين أغنيةِ حزينة وأخرى فرحة.. كلُّ الكلام لأجلكِ يصاغ بالشكل الذي يدعو شفاهكِ للفرح..

كلُّ الكلام يا صغيرتي، حتى الشعر الذي لا أجيده.

الآن أصل برفقتكِ إلى حدٍّ استنفاد كلمات اللغة.. ولا أقصد نصيّ النثري هذا فحسب..

فقد قمت منذ قليل بجولةٍ على جميع ما كتبته حباً بكِ وكنت كلما ازدادت صعوبة الإحصاء أزداد فرحاً وقلقاً في الوقت ذاته..

كتبت الكثير وحاولت في كلِّ مرةً أن لا أكرر أيَّ لفظٍ أو كلمة.. ومع هذه الكلمات أشعر بأنَّ الأبجدية تجلس بقربي وترجو أن أدع شيئاً منها حراً طليقاً..

ما رأيكِ؟ أكاد أشفق عليها..

حسناً، أظنني سأدع بعض الكلمات وأبدأ بتعلّم الشعر الذي قلتِ لي ذات مرة بأنه يولد معنا، سأحاول، وإلى أن يحين موعد إتقاني

لصياغته سأسرق بعض قصائد أصدقائي وبعض قصائد أجدادنا الشعراء وسأكتب لكِ أيضاً :

"وملبك بالحب ملبك"

***

"أهواك ولي قلبٌ بغرامك يلتهب"

لقد كان قلبي المولع بحبها هو ما يزرع الأمل في داخلي، لكنّه الآن متعبٌ قليلاً لا طاقة له على استيعاب مزيدٍ من الأمل..

العينان في ظلمةٍ حالكة.. استبدَّ بهما الحزن والأسى.. والقلب يحترق لينير ظلمة داخلي..

"أهواك بلا أمل" وأهواك كي أحترق وأصبح شهيداً لذاك الهوى..

كلُّ ما في داخلي يشدني نحوها رغم مناشدة قلبي للتوقف.. قلبي الذي يلفظ آخر الأنفاس ويطلق الأنين معاتباً ويصرخ تارةً:

لماذا فعلتها ومضيت دون اكتراث؟

مسكينٌ هو، لا يدرك بأنَّه أولُ الموافقين وأول من تاه في دروب ذاك الحب.. لقد أصبح يعاتبني ونسي ما أقدم عليه من خفقان..

العينان تُخفضان النظر والخجل يأسرهما والعقل يتربع على عرشه مغتراً فهو المنتصر دائماً وهو المنتقم دائماً لإهمال الجوارح التي تدفع ثمن كلِّ هذا، لإهمالها له..

يسألني القمر وتسألني جميع الجمادات حولي، يسألني القلم وتسألني الأوراق.. كلهم يريدون معرفة ما أعيشه داخلي فأجيبهم كما قالت معشوقتي:

"أحببت بلا أملِ"

***

"كنا اتودعنا وصوتك غاب"

إنَّ أكثر ما أعشقه بين عبارات وتراتيل فيروز هو تلك العبارة "كان الوداع ابتساماتٍ مبللةً بالدمع حيناً وبالتذكار أحياناً" .. أعشق تلك العبارة رغم كلِّ ما تحمله من ألم .. والحال في هذه الأغنية مشابهٌ لذلك.. أعشق تفاصيل هذه الأغنية لكنَّ بعضها يحمل الحزن والألم لي دائماً..

"ولما عحالي سكرت الباب لقيتك بيني وبين حالي"

إيقاع قلبي يتباطأ خوفاً كلما سمعت هذا المقطع.. ويزداد الأرق عندما يتردد على مسامعي تلك الجملة:

"فارقني النوم وكلشي كان"

وفي اعتقادي أنَّ هذه الأغنية قد كتبت بماء الأسى والحزن والأرق وفي بعض الأحيان أكاد أجزم بأنَّ كاتبها كان ساهراً أرقاً.. كما أنَّ معشوقتي، وأجزم كلَّ الجزم في هذا، قد أمضت الليل بأكمله تنثر سحر صوتها عليها..

هذه حكاية أغنيةٍ أعشقها لا حكاية عشقٍ معتادة..

"من عزّ النوم بتسرقني"

ينتشلني لحن هذه الأغنية ويسرقني من نومي لأكتب هذه الكلمات حزيناً نعساً..

وأعود إلى فراشي لاحقاً وما زلت أردد:

"وبتلج الماضي بتحرقني"

***

"وقالت له بإيدي كتبت القصيدة بوراق المحبة وبعينيي"

يتبادر إلى ذهني كلما ذُكر أمامي لفظ (قصيدة أو شعر) إصرار محبوبتي على سمو الشعر فوق النثر وتفضيلها إياه وإعجابها الشديد به، ويتبادر إلى ذهني أيضاً محاولاتنا اليائسة في كتابة شعرٍ نرسم فيه حبنا..

ذات مساء وبينما كنا نتأمل النجوم المطلة من نافذة غرفتنا اقتربت منها وهمست في أذنها:

_أتحسبينني قادراً على قطف نجمةٍ من النجوم واتخاذها دفتراً أكتب فيه بعض الشعر عن عينيكِ؟

باغتتني بقبلةٍ دون أن تجيب..

جلست حائراً أفكر وأردد في نفسي:

_أظنها تخبرني بأنها قد قبِلت أو ربما اكتشفت حيلتي ومكري.

وبعد لحظاتٍ اقتربت وهمست في أذني:

_لا تبتئس يا عزيزي، فكلُّ ما تنثره من كلمات يمشي في عروقي شعراً..

ابتسمت ونظرت في عينيها ثم قلت:

_ما رأيكِ يا صغيرتي أن أنسج من شَعركِ بعض الشعر وأنَّ تكون الجديلة التي سأصنعها بمثابة بيتِ شعرٍ يحمل بين ثناياه سحركِ وشذاكِ

أومأت برأسها موافقة فرددت حين بدأت كتابة بيت الشعر الأول:

"مرخية الجدايل والجدايل.. يا لون السنابل عالجدايل"

***

عزيزتي فيروز

بعد كل الحكايات التي نثرتها برفقة تراتيلك خطر في بالي اليوم أن أكتب لكِ رسالةً ك رسائلي ل قمرية الوجه ودوستويفسكي ففي ازدحام أيامي كنتِ أنتِ أيضاً رفيقة دربي..

أتعلمين؟

حاولت منذ لحظات أن أكتب هذه الرسالة، لكنني ودون أن أشعر صغت حكايةً جديدة .. وأظن بأن سبب هذا هو اعتيادي على التلذذ بكل كلماتكِ..

دعيني أقص عليكِ بدايات (فيروز وحكاية) في رسالتي الأولى..

لقد بدأت قصتنا ب (عندي ثقة فيك) حينها، قررت أن أستعين بسؤالك:

"معقول في أكتر" وسطرّت إجابتي التي انتهت ب "هكذا أحبك وهكذا أحيا بك" وسأرفِق لك تلك الحكاية مع هذه الرسالة.

استمرت الحكايات وكنت أنسج في كلِّ مرةٍ حكايةً جديدة..

كم كانت كلماتكِ يا معشوقتي ملهمةً وكم كان الوقت الذي أقضيه في صوغ تلك الكلمات أخّاذاً..

دعيني أخبركِ أيضاً بأنني وبكل افتخار لست مثلهم.. لست ممن يديرون المذياع ويستمعون عتباً أو عادة.. لا أظنُّ بأن أحداً منهم قد جرّب أن يعيش تفاصيل كلِّ أغنية وأن يجعل منها لوحةً فنية.. لقد كنت أرسم برفقة تراتيلك حكاياتٍ ولوحات..

وكعادتي في كتابة الرسائل وفي رسائلي الأولى دائماً لن أطيل وسأدعو الله أن يمدني بمزيدٍ من القدرة على العيش برفقة كل شطرٍ وأغنية..

******

إن كنت مستمعاً جيداً لما يُطلقه مذياعك أو هاتفك من تراتيلِ وألحان فقد عشت هانئاً ومحظوظاً وذواقاً.. وإن عشقت ما تتغنى به ستتوجه إلى أقرب مكتبة وتبتاع بعض الأوراق والأقلام وتبدأ بسرد حكاياتك..

عمار عبد السلام ديب